# الأرض المتصدعة: كيف تمزق العالم العربي؟

**إنها قصة تحكي تفاصيل الكارثة التي مزقت العالم العربي منذ غزو العراق قبل ١٣ عاما، ما أدى إلى ظهور داعش وأزمة اللاجئين العالمية. إن جغرافية هذه الكارثة واسعة وأسبابها عديدة، إلا أن عواقبها ـ الحرب وعدم الاستقرار في جميع أنحاء العالم ـ معلومة لدينا جميعا.**

**سكوت اندرسون (نيويورك تايمز)**

**ترجمة: حسن المطروشي (باختصار)**

إنه لم يسبق لنا التركيز والاهتمام على موضوع واحد على هذا النحو، ونطالب أيضا القراء أن يفعلوا الشيء نفسه. ولم نكن لنفعل ذلك لو لم نكن على يقين بأننا نقدم إحد أكثر التفسيرات وضوحا في الرؤية وعمقا وإنسانية في كل ما وقع من أحداث في هذه المنطقة.

«جيك سيلفرشتاين، رئيس التحرير»

قبل الدخول بالمركبة إلى شمال العراق، قام الدكتور عازار ميرخان بتغيير ملابسه الغربية إلى اللباس التقليدي للمحاربين الأكراد البيشمركة: سترة قصيرة من

**التاريخ يجري بطريقة لا يمكن التنبؤ بها.**

**دائما يأتي نتيجة للتيارات والحوادث التي تبدو عشوائية**

**لماذا اتجهت الأحداث إلى هذا المنعطف؟**

الصوف على القميص، البنطلون الفضفاض وحزام عريض. كما لم يفته أن يحضر معه بعض الاكسسوارات، التي شملت سكين قتال، مدسوسا بعناية في وسط الحزام، بالإضافة إلى مناظير للقناصة. وتحسبا لأي أمر طارئ، فقد وُضِعت بندقية من طراز M-4 في متناول اليد على المقعد الخلفي.

كانت وجهتنا في ذلك اليوم إلى أكثر الأماكن حزنا وإيلاما بالنسبة لعازار، إنه المكان الذي ما زال يسكنه حتى الآن. في العام الماضي تمكن مقاتلو داعش من اجتياح رقعة القتال عبر شمال العراق، وطرد الجيش العراقي الذي يفوقهم في الحجم إلى حد كبير، ثم حولوا أنظارهم إلى الأكراد. كان عازار متيقنا على وجه التحديد متى يوشك قتلة داعش شن الهجوم، كما كان يعرف أن عشرات الآلاف من المدنيين قد توقفوا في الطريق بلا حول ولا قوة، ولكنهم لم يتمكنوا من الحصول على أي شخص ليصغي إلى صيحاتهم. ووسط شعور باليأس، شحن مركبته بالبنادق وهرع إلى مكان الحدث، ليصل إلى بقعة في الطريق ليدرك أنه أتى بعد فوات الأوان. «لقد كان واضحا»، قال عازار «واضحا جدا. ولكن لا أحد يريد أن يستمع». في ذلك اليوم، ونحن عائدون إلى المكان الذي خذل فيه المحاربون الأكراد في شمال العراق، حيث فشل الدكتور عازار في تجنب مأساة هائلة، وحيث سيواصل المعركة ضد داعش لعدة أشهر قادمة.

عازار هو واحد من ستة أشخاص أرخت حياتهم في هذه الصفحات. والستة يأتون من مناطق ومدن وقبائل وأسر مختلفة، لكنهم يشتركون مع الملايين من الناس الآخرين في منطقة الشرق الأوسط. إنها تجربة انهيار عميق. فقد تغيرت حياتهم إلى الأبد بعد الاضطرابات التي بدأت في عام ٢٠٠٣ مع الغزو الأمريكي للعراق، ثم تسارعت عبر سلسلة من الثورات والانتفاضات التي عرفت في الغرب باسم «الربيع العربي». إنهم ما يزالون يعيشون في ظل عمليات النهب التي تمارسها داعش، والهجمات الإرهابية والدول الفاشلة.

إن التاريخ يجري بطريقة لا يمكن التنبؤ بها. وهو دائما يأتي نتيجة للتيارات والحوادث التي تبدو عشوائية، والتي يمكن استشراف معالمها ـ أو غير يقينية في كثير من الأحيان ـ حتى وقت متأخر. ولكننا ولو أخذنا في الحسبان طبيعة التاريخ المتقلبة، فإن الحدث المفصلي في انطلاق فتيل الربيع العربي يبدأ على الأرجح بانتحار فقير تونسي بائع فاكهة وخضروات، حين أقدم على إحراق نفسه احتجاجا على المضايقات الحكومية. فحينما توفي محمد البوعزيزي متأثرا بإصابته بتاريخ ٤ يناير ٢٠١١، أخذ المحتجون الذين خرجوا في البداية إلى شوارع تونس للمطالبة بالإصلاح الاقتصادي أخذوا يطالبون باستقالة زين العابدين بن علي، الرئيس القوي الذي حكم البلاد لمدة ٢٣ عاما. في الأيام اللاحقة نمت تلك المظاهرات في حجمها وكثافتها، ثم قفزت خارج الحدود التونسية. وبحلول نهاية يناير، اندلعت الاحتجاجات المناهضة للحكومة في كل من الجزائر ومصر والأردن. وكانت تلك البداية فقط. وبحلول نوفمبر، بعد ١٠ أشهر فقط من وفاة البوعزيزي، أطيح بأربع ديكتاتوريات عتيدة في الشرق الأوسط، فيما تعرض نصف دزينة من الحكومات الأخرى فجأة لهزات أو وعدت بإجراء إصلاحات، وانتشرت المظاهرات المناهضة للحكومات ـ بعضها سلمي، والبعض الآخر عنيف ـ في العالم العربي كالنار في الهشيم من موريتانيا إلى البحرين.

ككاتب ذي خبرة طويلة في شؤون الشرق الأوسط، رحبت في البداية بهزات الربيع العربي، بل كنت أعتقد أنه طال انتظاره. في مطلع سبعينيات القرن العشرين كنت قد سافرت مع والدي صبيا عبر المنطقة، وقد أثارت تلك الرحلة افتتاني بالإسلام وعشقي للصحراء. وكانت منطقة الشرق الأوسط أيضا أول وجهة لي في الصحافة عندما هبطت من الطائرة في صيف عام ١٩٨٣ إلى مدينة بيروت المحاصرة أملا في الحصول على عمل بالتعاقد. وعلى مدى السنوات اللاحقة، انضممت إلى فصيل للقوات الإسرائيلية الخاصة في شن غارات في الضفة الغربية، وتناولت الطعام مع الجنجويد في دارفور، وأجريت مقابلات مع عائلات الانتحاريين. وأخيرا توقفت لمدة خمس سنوات عن مزاولة الصحافة لتأليف كتاب عن الأصول التاريخية للشرق الأوسط الحديث.

عبر أسفاري المهنية على مدى عقود من الزمن، لم أجد أي منطقة أخرى لمنافسة العالم العربي في الركود المطلق. ففي الوقت الذي حقق معمر القذافي في ليبيا رقما قياسيا في البقاء في الحكم، عبر ٤٢ عاما من الدكتاتورية، فإن الأمر لم يكن يختلف في أي مكان آخر في منطقة الشرق الأوسط. فحتى عام ٢٠١١، لم يكن أي مصري من الذين تقل أعمارهم عن ٤١ ـ حوالي ٧٥ في المائة من

**عبر أسفاري المهنية على مدى عقود من الزمن، لم أجد أي منطقة أخرى لمنافسة العالم العربي في الركود المطلق**

السكان ـ يعرف سوى اثنين من الرؤساء، في حين عاش كل سوري من نفس الفئة العمرية حياته كلها تحت حكم الأب والابن من سلالة الأسد. ومع الركود السياسي، فإن معظم مقاليد السلطة الاقتصادية في العديد من الدول العربية تكمن في أيدي القلة الصغيرة أو الأسر الارستقراطية. أما بالنسبة للأشخاص العاديين فقد كان السبيل الوحيد لكسب العيش هو انتزاع وظيفة في القطاع العام، الذي يعاني من بيروقراطية متضخمة بشكل خيالي، فيما كانت المؤسسات الحكومية ذاتها في كثير من الأحيان خاضعة للمحسوبية والفساد. وفي حين أن الكم الهائل من الأموال المتدفقة، قد تتيح في الدول الغنية بالنفط ذات الكثافة السكانية المنخفضة مثل ليبيا أو الكويت في الحصول على درجة من الازدهار الاقتصادي ينعكس إيجابا على الجميع، بينما لم يكن هذا هو الحال في الدول الأكثر سكانا، ذات الموارد الفقيرة مثل مصر أو سوريا، حيث الفقر والبطالة الشديدة المقنعة، بالإضافة للانفجار السكاني الإقليمي المتصاعد، ما يضاعف المشاكل ويزيدها تفاقما.

كنت مندهشا في الأيام الأولى للربيع العربي من تركيز غضب الشعوب. إن أحد أبرز المعالم المنهكة في العالم العربي، التي عايشتها منذ فترة طويلة، هي ثقافة التظلم التي كانت أقل مما يطمح إليه الناس قبل حدوث المواجهة. كانت هناك المعاداة للصهيونية، والغرب ومعاداة الإمبريالية. لأجيال كانت الأنظمة الدكتاتورية في المنطقة بارعة في توجيه الغضب الشعبي تجاه هؤلاء «الأعداء» الخارجيين، بعيدا عن سوء الأنظمة لديهم. ولكن مع اندلاع الربيع العربي، فجأة لم تعد تلك المسرحية القديمة تجدي نفعا. بدلا من ذلك، وللمرة الأولى على هذا النطاق الشامل، توجه شعوب الشرق الأوسط غضبها مباشرة إلى الأنظمة نفسها.

وفجأة ذهب كل شي خطأ. فبحلول صيف عام ٢٠١٢، انزلقت دولتان من الدول التي «حررت» ـ ليبيا واليمن ـ إلى الفوضى والطائفية، في حين انحدر النضال ضد حكومة بشار الأسد في سوريا إلى حرب أهلية شرسة. وفي الصيف التالي كانت أول حكومة منتخبة ديمقراطيا في مصر قد أطاح بها الجيش، ورحب بهذا الانقلاب الكثير من الشباب الناشطين أنفسهم الذين خرجوا إلى الشوارع للمطالبة في وقت سابق بالديمقراطية قبل عامين. وكانت النقطة المشرقة الوحيدة بين دول الربيع العربي هي المكان الذي انطلق منه، وهي تونس، ولكن حتى هناك، كانت الهجمات الإرهابية وصراعات الساسة تمثل تهديدا مستمرا للحكومة الهشة. ووسط حالة من الفوضى، تمكنت بقايا من تنظيم أسامة بن لادن القديم، تنظيم القاعدة، للحصول على فرصة جديدة للحياة، وإشعال الحرب في العراق، ثم نشأت أكثر شدة ودموية ممثلة في جماعة داعش الإرهابية.

فلماذا اتجهت الأحداث إلى هذا المنعطف؟ لماذا تنحرف حركة بدأت بهذا السقف العالي من التوقعات على هذا النحو الرهيب؟

إن طبيعة البعثرة في أحداث الربيع العربي تجعل من الصعوبة تقديم إجابة واحدة. لقد تحولت بعض الدول بشكل جذري. كانت بعض الدول في الأزمة تنعم بثراء نسبي (ليبيا)، فيما كان البعض الآخر فقيرا فقرا مدقعا (اليمن). بعض البلدان ذات الديكتاتوريات الحميدة نسبيا (تونس) انفجرت مباشرة مع بعض دول المنطقة الأكثر وحشية (سوريا). التفاوت السياسي والاقتصادي ذاته موجود في الدول التي ظلت مستقرة.

ويبرز من خلال الأحداث أمر لافت للنظر. ففي حين أن معظم الدول الـ ٢٢ التي تشكل العالم العربي قد طالها الربيع العربي إلى حد ما، إلا أن الدول الست الأكثر تأثرا ـ مصر، العراق، ليبيا، سوريا، تونس واليمن ـ كلها جمهوريات، ولم تكن أنظمة ملكية. ومن بين هذه الدول الست، تفككت ثلاث منها تماما، حتى إنه غير معلوم فيما إذا كانت سوف تعود إلى الوجود كدول فاعلة مرة أخرى ـ العراق وسوريا وليبيا ـ وهي جميعها تنتمي إلى تلك القائمة الصغيرة من الدول العربية التي أنشأتها القوى الاستعمارية الغربية في وقت مبكر من القرن العشرين. وفي كل منها أعطي اهتماما قليلا لموضوع التماسك الوطني، وأقل من ذلك الاهتمام بالتقسيمات القبلية أو الطائفية. ومن المؤكد أن هذه الانقسامات الداخلية نفسها موجودة في العديد من الجمهوريات الأخرى في المنطقة، وكذلك في الملكيات، ولكن الأمر لا يمكن إنكاره أن هذين العاملين كان لهما تأثير بالغ في الأحداث ـ عدم وجود شعور بهوية وطنية واحدة لا تتجزأ، مضافا إليه وجود نظام حكومي حل محل قيم التنظيم التقليدي للمجتمع ـ الأمر الذي وضع العراق وسوريا وليبيا في موقف ضعيف عندما هبت عواصف التغيير.

القصة بدأت في نهاية الحرب العالمية الأولى، عندما اقتسم اثنان من الحلفاء المنتصرين وهما بريطانيا وفرنسا أراضي الإمبراطورية العثمانية المهزومة بينهما كغنائم الحرب. في بلاد ما بين النهرين ضم البريطانيون ثلاث ولايات عثمانية معا، تتمتع بحكم شبه ذاتي وأطلقوا عليها اسم العراق. أقصى الجنوب من هذه المحافظات تقطنها أغلبية من الشيعة العرب، فيما يغلب على الوسط العرب السنة ويغلب على أقصى الشمال الأكراد. أما إلى الغرب من العراق، فقد اتخذت القوى الأوروبية اتجاها مغايرا، حيث وزعت الأراضي الشاسعة من «سوريا الكبرى» إلى قطع صغيرة، أكثر قابلية للإدارة. وبالتالي فقد وقعت تحت السيطرة الفرنسية دويلة مصغرة من سوريا ـ هي الدولة الموجودة اليوم ـ وجيب لبنان الساحلي، في حين استولى البريطانيون على فلسطين وشرق الأردن، وهي رقعة من الجنوب السوري، التي أصبحت في نهاية المطاف الأردن والأراضي الفلسطينية المحتلة من قبل إسرائيل. وعما قليل دخلت إيطاليا إلى اللعبة في عام ١٩٣٤، حيث ضمت المناطق الثلاث الإفريقية الشمالية القديمة التي كانت قد انتزعت من العثمانيين في عام ١٩١٢م، لتشكل المستعمرة الليبية.

وللحفاظ على السيطرة على هذه الأراضي المنقسمة، اعتمدت الدول الأوروبية نفس النهج «فرق تسد» الذي أثبت لها جدواه في مستعمرات أفريقيا. ويقوم هذا التوجه على تمكين أقلية عرقية أو دينية محلية لتكون بمثابة المسؤولين المحليين، وعلى ثقة من أن هذه الأقلية لن تتمرد على المسؤولين الأجانب خشية أن يتم اجتياحها من قبل الغالبية المحرومة.

كان ذلك هو العنصر الأكثر وضوحا في استراتيجية «فرق تسد» الأوروبية، فيما بقيت وراء الانقسامات الطائفية والمحلية لتلك «الدول»، تركيبة معقدة للغاية من القبائل والعشائر، إلى جانب العادات الاجتماعية القديمة التي بقيت المصدر الرئيسي للسكان في تحديد الهوية والولاءات. ويشبه

## لماذا تنحرف حركة بدأت بهذا السقف العالي من التوقعات على هذا النحو الرهيب؟

كثيرا ما فعلته جيوش الولايات المتحدة والمستوطنون البيض مع القبائل الهندية في غزو الغرب الأمريكي، أثبت الإيطاليون والبريطانيون والفرنسيون مهارة عالية في تأليب هذه الجماعات ضد بعضها البعض، من خلال إمدادها بالأسلحة أو المواد الغذائية، التي يقدمونها لفصيل معين في مقابل قتال الآخر. إلا أن الفارق الأكبر بين الحالتين، هو أن في الغرب الأمريكي، بقي المستوطنون فيما دمر النظام القبلي تماما. أما في العالم العربي، فقد غادر الأوروبيون في نهاية المطاف، وبقيت الانقسامات الطائفية والقبلية التي تغذيها.

وفي ضوء ذلك، يبدو انتحار محمد البوعزيزي ٢٠١١ حافزا أقل للربيع العربي من التوترات والتناقضات العميقة التي كانت تغلي تحت السطح في المجتمع العربي لفترة طويلة. وقد لا يتلفت الناس في جميع أنحاء العالم العربي إلى واقعة حدثت قبل ثماني سنوات من وفاة البوعزيزي، وهي اللحظة التي بدأت فيها عملية تفكك السكان وهي: الغزو الأمريكي للعراق. إذ يشير العديد إلى مشهد فريد تجسدت فيه الاضطرابات اللاحقة. لقد وقع ذلك بعد ظهر يوم ٩ أبريل ٢٠٠٣، في ساحة الفردوس وسط بغداد، عندما أسقط إلى الأرض تمثال شاهق للرئيس العراقي السابق صدام حسين، بمساعدة رافعة أمريكية مدرعة.

للمرة الأولى في حياتهم، شاهد السوريون والليبيون وغيرهم من العرب مثلما شاهد العراقيون أن شخصية صلبة مثل صدام حسين يمكن التخلص منها، ما يعني أن الشلل السياسي والاجتماعي الذي طالما بقي مهيمنا لعقود على أوطانهم قد يكون في الواقع قابلا للتحطيم. لم يكن واضحا تماما ما بذله أولئك الرجال الأقوياء في الواقع للمحافظة على تماسك بلدانهم، حتى بدأت في غيابهم القوى القبلية والطائفية القديمة في ممارسة استقطاباتها الخاصة. الأمر الذي كان أقل وضوحا هو كيف يمكن لهذه القوات أن تجتذب أو تواجه الولايات المتحدة، وإلحاق الضرر بقوتها وهيبتها في المنطقة إلى حد لا يمكن تجاوزه.

على الأقل كان هناك رجل واحد لديه رؤية واضحة تماما بشأن ما سيحدث. في عام ٢٠٠٢، عملت إدارة بوش على تمهيد الطريق لغزو العراق باتهام صدام حسين حسين بحيازة برنامج لإنتاج أسلحة الدمار الشامل، وربطه بشكل غير مباشر بهجمات ١١ سبتمبر. وفي أكتوبر من نفس العام، وقبل ستة أشهر من أحداث ساحة الفردوس، كان لي حديث طويل مع الزعيم الليبي معمر القذافي، إذ سألته عن من المستفيد إذا ما حدث غزو العراق فعلا. كان الزعيم الليبي عادة من يفكر مليا قبل الإجابة عن أسئلتي، ولكن رده كان قاطعا: «إنه بن لادن». «ليس هناك شك في ذلك. ويمكن أن تصبح أرض العراق في نهاية المطاف مسرحا لانطلاق تنظيم القاعدة. إن انهيار حكومة صدام ستؤدي بالعراق للفوضى. وإذا حدث ذلك، فإن القتال ضد الأمريكيين سيعد جهادا».

ابتداء من أبريل ٢٠١٥، شرعت أنا والمصور الفوتوغرافي باولو بيليجرين في القيام بسلسلة من الرحلات المتواصلة إلى الشرق الأوسط. وقد عملنا فرادى أو كفريق ثنائي، الكاتب والمصور، على تغطية العديد من الصراعات في المنطقة على مدى ٢٠ عاما الماضية، وكنا نتطلع عبر هذه الرحلات للتوصل إلى فهم أكبر حول ما يسمى «الربيع العربي» وآثاره الوخيمة. وفي الوقت الذي استمر الوضع في التدهور خلال عامي ٢٠١٥ و٢٠١٦، توسعت رحلاتنا: إلى تلك الجزر في اليونان متحملين عبء الهجرة من العراق وسوريا، إلى الخطوط الأمامية في شمال العراق حيث المعركة ضد داعش على أشدها. وقد قمنا بتوثيق نتائج هذا المشروع الذي استغرق ١٦ شهرا على شكل ست روايات فردية، نسجت داخل الإطار الأكبر للتاريخ، تهدف إلى إيجاد رؤية للتمرد في العالم العربي. وقد قسمنا العمل إلى خمسة أجزاء، تتطلق تاريخيا فيما تتناوب الشخصيات الرئيسية لدينا. وإلى جانب تقديم العديد من هذه الشخصيات، يركز الجزء الأول على العوامل التاريخية الثلاثة التي تعد حاسمة لفهم الأزمة الحالية: عدم الاستقرار المتأصل للدول المصطنعة في منطقة الشرق الأوسط، والموقف الحرج الذي وجدت فيه الحكومات العربية المتحالفة مع الولايات المتحدة نفسها عندما أجبرت على اتباع سياسات معارضة بقوة من قبل شعوبها، والتدخل الأمريكي في التقسيم الفعلي للعراق قبل ٢٥ عاما، وهو حدث لم يتم التنبه له جيدا في حينه، وبالكاد التنبه أنه الحدث الذي أسهم في التشكيك في شرعية الدولة القومية العربية الحديثة. أما الجزء الثاني فقد تم تخصيصه للغزو الأمريكي للعراق، وكيف مهد لقيام ثورات الربيع العربي. وفي الجزء الثالث تتسارع وتيرة السرد، إذ نتابع نتيجة الانفجار ممثلا في الثورات التي قامت في كل من مصر وليبيا وسوريا. وعند الجزء الرابع الذي يروي بروز ظاهرة داعش والجزء الخامس الذي يرصد حركة النزوح الجارية في المنطقة، فإننا نكون قد وصلنا إلى قلب الحاضر، وفي عمق أشد مناطق العالم غليانا.

لقد حاولت أن أروي قصة إنسان، لديها أبطالها، ومحملة ببصيص من الأمل. ولكن ما يأتي في نهاية المطاف نذير مظلم. إذ تجاوزت مأساة العنف اليوم في الشرق الأوسط حدودها، حيث تدفق ما يقارب مليون لاجئ سوري وعراقي إلى أوروبا هربا من الحروب في بلدانهم، وها هي الهجمات الإرهابية في كل من دكا وباريس وغيرها. ومع ممارسات القتل الجماعي التي تقوم بها داعش في سان برناردينو وأورلاندو، أصبحت قضايا الهجرة والإرهاب الآن ملتصقة في أذهان كثير من الأمريكيين. وبمعنى ما، فمن الرجاحة القول إن أزمة العالم العربي الراهنة لها جذورها التي تمتد إلى الحرب العالمية الأولى، ومثل تلك الحرب، كانت في الأساس أزمة إقليمية سرعان ما تحولت ـ مع قليل من الأسباب والمنطقية ـ لتؤثر على سير الأحداث في كل ركن من أركان المعمورة.